

إرهاصات المعجمية الفرنسية العربية

الدكتور محمد بسناسي

جامعة ليون، فرنسا

Résumé : *Dans la tradition lexicographique arabe, on n'a pas vraiment manifesté un intérêt pour la compilation des dictionnaires bilingues. Tandis que les lexicographes arabophones ont brillamment excellé en confectionnant des dictionnaires monolingues. C'est pourquoi nous aspirons, à travers l'actuel article à mettre l'accent sur les raisons du désintérêt à l'égard de la production des dictionnaires bilingues. Nous tenterons d'expliquer l'engouement quasiment exclusif des lexicographes pour la composition des dictionnaires réservés à l'arabe. Cela est d'autant plus vrai qu'ils ont parfaitement maîtrisé les procédés permettant et la sélection judicieuse de la matière linguistique et les méthodes ingénieuses de son arrangement.*

Nous nous serons limité ici à aborder la lexicographie française-arabe en explorant sa genèse. Nous étudierons en particulier le dictionnaire d'Ellious Boctor. Car il représente un véritable point de départ en matière de la compilation des dictionnaires de type français-arabe. Pour ce faire, nous citerons d'abord les quelques causes de l'apparition tardive de la lexicographie bilingue côté arabe. Nous expliquerons ensuite les raisons de l'intérêt pour la production dictionnaire bilingue – incluant l'arabe – en France. En outre, nous évoquerons les différents éléments du contexte historique, ainsi que ses multiples impacts sur l'option des lexicographes pour un type donné de production dictionnaire. Enfin, nous retracerons les traits saillants du dictionnaire d'Ellious Boctor en mettant sa microstructure sous la loupe.

Mots clés : le dictionnaire bilingue, la microstructure, l'orientalisme, l'unité lexicale, la matière linguistique, le dialecte.

الملخص بالعربية: يُلاحظ أنّ العرب لم يلتفتوا كثيرا إلى صناعة القواميس الثنائية اللغة التي تكون العربية طرفا فيها، في حين أنّهم تفتّنوا في وضع تصانيف عنث بالمعجمية الأحادية اللغة؛ لذلك سنطرح من خلال هذه الورقة إلى استجلاء دوافع عزوف المعجميين العرب عن إنتاج القواميس المزدوجة اللسان، واستيضاح بواطن شغفهم وولعهم بوضع معاجم تخصّ العربية فقط حتّى أنّهم برعوا وتميّزوا في طرائق تحيّر المادة اللسانية، وفي مناهج ترتيبها.

لقد حدّدنا أفق رؤانا بالنظر في صنف المعجمية الفرنسية-العربية، ساعين لاستيضاح إرهاصاتها، متوخّين تدارس قاموس إليوس بقطر، الذي كان نقطة انطلاق حقيقية في وضع القواميس المزدوجة اللغة بين الفرنسية والعربية. وفي تدارسنا إذن لجوانب تتصل بالمعجمية الثنائية اللغة بين الفرنسية والعربية، سنجتهد في رصد دوافع تأخر ظهورها في الجانب العربي جمعا ووضعاً، وعوامل تفتّحها في البلاد الفرنسية نتاجاً واجتهاداً، مفردين حيناً هاما لعامل السياق التاريخي وتأثيراته في الميل إلى ضرب معيّن من النتائج المعجمية. سنتناول، ختاماً، بالنظر والتحليل قاموس بقطر مناقشين أهم سمات مصنّفه، وذلك بتسليط الضوء على بنيته الصغرى.

كلمات أساسية: القاموس الثنائي اللغة، البنية الصغرى، الاستشراق، الوحدة المعجمية، المادة اللسانية، اللهجة.

تمهيد: خلال المسيرة الطويلة للغة العربية، اكتفى العرب في حقل المعجمية بإعداد وتصنيف القواميس الأحادية اللغة رغبة في حماية اللسان العربيّ مما اعتوره من دخيل، ومما شاب استعماله من لحن وتبديل، وعكف القاموسيون فيما عكفوا على شرح ما قد يُعتاص فهمه وما قد لا يتيسر إدراك كنهه؛ فكثيرة هي القواميس التي وُضعت لكي تحفظ الرصيد اللغوي وتصونه، وتفصل في الاستعمالات الدلالية وتستجليها. إنّ اهتمام العرب بالمسائل اللغوية له ما يعلّله من مناحي قراءة وفهم وتدبر القرآن، "وأصبح تعلّم العربية ودراستها ضرورة أساسية من أجل فهم القرآن الكريم وتلاوته تلاوة صحيحة كما نطق به الرسول صلّى الله عليه وسلّم"¹، وعليه، لم يكن بالميسور قليلاً أو كثيراً إدراك معاني القرآن، والتلفظ بآياته إلا بتعلّم اللغة العربية ومستوياتها اللسانية المختلفة، ومن ثمة فقد "انبعثت الصناعة المعجمية العربية في القرن السابع الميلادي لأسباب دينية"². ولما امتدّ التوسّع الإسلاميّ وطال عديد الأقاليم غير العربية، دعت الحاجة إلى الالتفات إلى رصد، وجمع، ووضع المادة اللغوية، وبخاصّة تلك التي لم يمسه اختلاط، ولم تحفل بما درج عليه غير العرب من أغلاط. وهكذا "نظرا لاتساع الرقعة الإسلامية الجديدة - التي لم تعد منحصرة في

شبه الجزيرة العربية، وتبعاً للتتوع العرقي الذي عرفه المجتمع - كان من الضروري وضع قواعد للنحو، وتسجيل المفردات في المصنّفات المعجمية³. كان الجامعون والواضعون للمادة اللغوية يرومون، من وجهة نظرهم، استخلاص شيء من النقاوة والصفاء من نتاج الكلام العربي، وهذا ما عبّروا عنه بمفهوم الفصاحة. وعلى كلّ، فقد كان شغلهم الشاغل منصباً على التّدين والتّعيد للعربية، ولم يلتفتوا كثيراً لتعلم اللغات المجاورة، على الرّغم من توهج حركة التّرجمة، وممارستها من لدن فئة كانت عارفة - زيادة عن العربية - لغة أو لغات أخرى، وكان اتجاه التّرجمة سائراً من مختلف اللّغات إلى العربية.

إذن، لقد دعت الحاجة لقراءة القرآن قراءة صحيحة، وللتحدث بلسان سليم من اللحن إلى تأسيس علم النحو، ووضع القواميس. وكان اهتمام العرب قديماً بوضع القواميس اللغوية العامة منها والمختصة اهتماماً بالغا، ونقصد بالقواميس العامة تلك المصنّفات التي عنت بمفردات اللغة في شتى استخداماتها المعرفية: أدب، دين علوم، فنون، أما القواميس المختصة، فدوّنت لعلم ما، أو لفنّ ما، أو حقل يطرق موضوعاً محدود النطاق: حيوانات، نباتات، إلخ. وكانت تقتصر القواميس على جمع ووضع المادة اللغوية الخاصّة باللسان العربي. ومن أبرز مفاصل الوضع المعجمي، هناك طائفة من الهواجس راودت واضعي المعاجم؛ فنجدهم ألّفوا في:

- غريب القرآن
- لغات القرآن
- الوجوه والنظائر
- معرب القرآن
- غريب الحديث
- معاجم تتناول حقلاً من الحقول (الطب مثلاً)
- معاجم التصويب اللغوي (اللحن والأغلاط)

- معاجم تتناول موضوعا واحدا (الفرس مثلا)
- معاجم الأمكنة
- معاجم الأصوات (الإبدال والقلب)
- معاجم الاشتقاق
- معاجم الحروف (الضاد والظاء، السين والصاد)
- معاجم الاختصار/الاستدراك/التكمالات
- معاجم الأضداد

1- توضيح بعض المصطلحات: من المتداول في حقل المعجمية مصطلحات من شاكلة معجم وقاموس، وجاء تعريف مصطلح القاموس في معجم اللغة العربية المعاصرة كما يلي: "قاموس: [مفرد] ج قواميس. 1. بحر عظيم. 2. علم على معجم الفيروز آبادي، وصار يطلق على كل معجم لغويّ توسّعا"⁴، وحتّى المعاجم العربية الحديثة تورد مصطلحي القاموس والمعجم مترادفين؛ ففي المنجد في اللغة العربية المعاصرة، نلّف في مدخل معجم ما نصّه: "معجم ج معاجم: قاموس، ديوان لمفردات اللغة مرتب على حروف الهجاء"⁵. ويُطلق عادة في الاستعمال الشائع مصطلح قاموس بدل معجم لما نكون بصدد الحديث عن قواميس ثنائية اللغة؛ فيقال "قاموس فرنسي-عربي"، "قاموس عربي- إنجليزي"، إلخ.

والقواميس تتضمن مداخل في صورة وحدات معجمية مرتبة وفق نظام معيّن ومعلومات تدور حولها، وهي [...] نتاجات ناجمة من مبحث المفرداتية، كما أنّ النحو حاصل من دراسة التراكيب ومورفولوجية اللغة"⁶. وقد تجيء المادة في لغة واحدة، وهذا هو نوع القاموس الأحادي اللغة، وقد تتقابل المتون الواردة بين لغتين وهذا هو القاموس الثنائي اللغة، كما قد تتعدد اللغات في القاموس. وللقاموس وظيفة تعليمية؛ إذ يرشد الباحث إلى مدلول مفردة ما، أو مقابل لها في لغة ثانية وتقتصر

القواميس جملة من القضايا المتصلة بالحقول اللسانية وغير اللسانية حتى "يسهل التواصل اللساني بما يسدّ من فجوات معرفية لدى القراء"⁷.

2- دوافع عزوف العرب عن وضع القواميس الثنائية اللغة: هناك طائفة من الأسباب لم تحفز العرب على الخوض في وضع القواميس الثنائية اللغة، وجعلتهم ينصرفون عن تدوين مصنفات مرجعية تشمل موادا باللغة العربية ونظيراتها بلغة أجنبية. وانكبوا من ثمة على وضع القواميس الأحادية اللغة؛ بل إنهم طفقوا يهتمون بمعاني الكلمات، وبخاصة تفسير ما استغلقت استكناها من مفردات قرآنية و"لقد ابتدأت الأبحاث اللغوية، في القرن الأول للهجرة، تنعياً لتفسير غريب القرآن ومشكله، وغريب الحديث، وغريب ما ورد في الشعر العربي ونوادره"⁸، مما سبق يتجلى أنّ صناعة المعاجم، والاعتناء بالمادة اللغوية، شرحا وتفسيرا، كانتا من بواكير ما أُلّف في مرحلة التدوين.

إنّ ما كان يحذو واضعي القواميس لما اضطلعوا بجمع المواد وترتيبها هو هاجس تحصيل اللسان العربي ومحاولة جمع ما صحّ من كلام العرب بعدما شاع اللحن وذاع، ودفعهم في ذلك تصوّرهم بأنّ الفصاحة مرتبطة بجماعات ناطقة دون سواها، وبإمكانة تواجد الجماعات التي تُستقى منها المادة اللغوية. وزادوا أن وضعوا سقفا للفصاحة، فحدوها بالزمان؛ "آخرها منتصف القرن الثاني الهجري على الأرجح"⁹، وأخذوا مادة مصنفاتهم المعجمية ممّن رأوا أن لسانهم لم يختلط بعد ولم يلحقه إذاك اللحن، "ولم ينكف الناس على أن يلحنوا، فظلت كتب التصويب تتجدد لتعترض دون اللحن حفاظا على سلامة اللغة العربية مما يوهيها أو يفسدها"¹⁰. وباختصار، فلقد انكبّ العرب على لغتهم أكثر مما التفتوا إلى لغات جاورتهم حتى ولئن ترجموا من اللغات الأجنبية، ونقلوا منها المعارف الدخيلة.

لقد سعى العرب لحماية اللغة والمحافظة على ديمومتها لأنها اللغة التي نزل بها القرآن، فلما نشأ علم النحو وبدأت ضروب المعاجم في الظهور، كان يخالغ

المختصين باللغة شعور بضرورة التّقييد لكلام العرب، وبالحاجة الماسة لجمع المادة اللغوية من مصادر موثوقة؛ ذلك أنّ "المفكرين العرب رأوا أنّ اللغة العربية لن تصبح صافية"¹¹. وهكذا يمكننا القول إنّ المعجمية العربية اتّسمت بنزعة نضالية، دفاعا عن استمرارية اللّغة؛ فمن دوافع تدوين الكلم، والشواهد، ونماذج التعبير المثلى - حسب تصورهم - ذلك الشعور بالخوف الممزوج بالواجب الديني المقدّس. إنّ ما ألفوه من تراث لغويّ كان نابعا من قناعات راسخة لديهم، إذ هم لم يقفوا على وصف اللّسان العربيّ لذاته ومن أجل البّحث اللغويّ الخالص، بل دفاعا عن سلامة لغة القرآن، ومعلوم أنّ "التزامات المؤلفين، وقناعاتهم الفلسفية والعلمية ورؤيتهم للتعليم [...] حملتهم على إجراء اختيارات شخصية والتي تتكشف قليلا أو كثيرا في تصانيفهم"¹². ولا غرو أنّ واضعي المعاجم بالعربية وجامعي المادة اللسانية أسرفوا في الانتقائية، ولئن كانت الظروف تدفعهم إلى ذلك دفعا قاهرا.

كان للعرب فضول فيما دونته الأمم الأخرى في شتى مناحي العلوم والفنون والفلسفات، وعُرف عنهم اهتمامهم الأصيل بنقل المعارف الإنسانية؛ فتجشّم المترجمون مهمة نقل المصنّفات إلى العربية من اللغات (اليونانية؛ السريانية الفارسية...) التي احتضنت المعرفة بمختلف ضروبها من علوم، وحكمة، وطب إلخ. واضطلع بيت الحكمة الذي أُسس في 832 ميلادية بالنقل، بوصفه المركز الأول للترجمة وقتذاك، وتميّز بنشاط حيويّ بدفع غير خاف من المأمون¹³. وكانت حرفة الترجمة مقتصرة على المهرة من الذين يتقنون السنة أخرى ناهيك عن العربية. وأخذ اتجاه الترجمة مساره من اللغات الأجنبية إلى العربية. وهكذا، على الرّغم من وقوع اتّصال بين العربية واللغات الأخرى إلّا أنّ وضع القواميس الثنائية اللّغة لم يندرج ضمن صميم أولويات العرب؛ فلم يولوا اهتماما وقدرا كبيرين للمعجمية الثنائية اللّغة، لما ساورهم من أفكار عن طابع قدسيّ تتميّز به العربية عمّا سواها من اللّغات، ومن ثمة فقد طغت القواميس والمصنّفات المرجعية بالعربية فقط، "ولنا أن نفترض أنّ

إعجاب العرب الشديد بلغتهم - فإنّ كثيرين منهم كانوا يرونها مقدّسة وأنها من وضع إلهي - قد حاد بهم عن الاهتمام باللغات الأخرى التي لم يجدوا لها حماسا كبيرا، بل يمكن أن نقول إنّها لم تثر فيهم أيّ حماس¹⁴، واقتصرت عنايتهم الخاصة بالعربية. فالمترجم آنذاك كان ينجز الترجمة بفضل تمكنه من اللغة المنقول منها إلى العربية، وأحيانا كانت تتمّ الترجمة من لدن فريق من المترجمين، وغالبا ما تُعاد مراجعة ما نُقل بَعديًا؛ فتُعَدّل النصوص المترجمة وتُصحّح¹⁵. وفضلا عن ذلك، فقد أولوا أهميّة بالغة لنوعيّة التّرجمات إلى العربية "محاولين إيجاد وخلق مقابلات ملائمة، وبخاصّة في الحقل المختصّة"¹⁶.

نشير كذلك أنّ تعلّم اللّغات الأجنبيّة لم يكن شنشنة درج عليها العرب. لقد كانوا بالأحرى مكتفين باللسان العربيّ مؤثّرته إذّاك عمّا سواه تعلّمًا، وتفقهًا فيه، وتداولًا به. ولا غرو أنّ أولئك الذين كانوا يتقنون السنة أخرى، وينقلون منها، كانوا غالبا من غير المسلمين، إذ إنّ أداء التّرجمة تمّ من لدن "مترجمين معظمهم من المسيحيين (النساطرة واليعاقبة) وأولاء كانوا ذوي اللسان السريانيّ مع إتقانهم للعربية"¹⁷، وأحيانا ساعدهم في أدائهم هذا تمكنهم من أكثر من لغتين؛ حتّى أنّهم كانوا يعيدون التّرجمات لاحقا، ويراجعونها، فيضيفون ما يضيفون ويعدّلون ما يعدّلون. وبلغ شأن العربية حظوة سامقة أنّ تُرجمت بعض معاجمها إلى اللغات الأخرى مثل الفارسيّة والتركيّة، كما هو الشأن بالنسبة لمعجم تاج اللّغة وصاح العربية للجوهري¹⁸. ولشدة تباهاة الصحاح وذائع صيته أن تشوّف الأعجميون إليه، ووجد من علماء الإسلام المزدوجين من قضى أوطارهم منه بالتّرجمة ومنها بالفارسيّة: **الصحاح من الصحاح** لجمال الدين أبي الفضل محمد بن عمر بن خالد القرشي من أهل القرن السابع الهجري، نقل فيع الصحاح من العربية إلى الفارسية وفرغ من ذلك سنة 681 هـ [...] ومنها بالتركية لبيير محمد بن يوسف القونوي المعروف بقرة بيير المتوفي سنة 886 هـ¹⁹.

ومن بواعث الاكتفاء بوضع القواميس العربية الخالصة الشعور بتغلغل لغات أجنبية وزحفها في البلاد العربية؛ فتصدى القاموسيون لهذا الإيغال اللغوي - الذي كان دافعه الهيمنة على العربية في عقر دارها - وانتدبوا أنفسهم للذود عن اللسان العربي وتحصينه من انتشار اللسان الأعجمي، والوقوف سداً منيع أمامه، وكبح شيوعه، ولا أدلّ على ذلك ممّا صنعه صاحب لسان العرب²⁰، إذ يقول معللاً ما قام به من تأليف موسوعيّ: "تنافس النَّاس في تصانيف الترجمات في اللّغة الأعجميّة وتفاصحوها في غير اللّغة العربيّة، فجمعتُ هذا الكتاب زمن أهله بغير لغته يفخرون"²¹. إنّ موقف ابن منظور واضح إزاء المدّ الذي عرفته اللغات الأجنبية في البلاد العربيّة، وإنّا نلفاه يقرّ بأنّه يسبح ضد التيار الجارف؛ فقد شبّه وضعه للسان العرب كصنع سيدنا نوح عليه السّلام للسفينة وقومه منه يسخرون، ومصنّفه "دعت إليه النزعة الموسوعيّة التي كانت تهدف إلى جمع اللّغة في معجم متحف لتحاظ على تراثها وتحميه من التّيّارات الجارفة التي كانت تتمثّل في السّيطرة واللّغة التركيتين السائدتين في عصر ابن منظور"²².

لما قيّض للعثمانيين تملك معظم أوطان البلاد العربيّة، لم يبلغ العلم، تحت حكمهم، أشواطاً متقدمة وفتوحات مشرقة، بل طغى التكرار، ومصنّفات الشروح والحواشي، وخبث جذوة الفضول التي لطالما ميّزت العرب، ولم يصنعوا كثيراً معاجماً تنطوي على لغة أخرى إضافة إلى العربية في صورة تقابل بين المفردات والسياقات، وهذا تمام حسّان يصف الجمود الفكري والشلل الإبداعي فيما نصّه: "[خلال] ظهور العنصر التركي على مسرح السياسة واستبداده بأمر الخلافة وضيق أفقه في الفكر وقلّة حماسه للعلم وتلك ظاهرة ظلّت تتّضح في العالم العربيّ والإسلاميّ يوماً بعد يوم آخر وتستشري باطراد حتّى انتهت آخر الأمر بما سمّوه إقفال باب الاجتهاد"²³.

بالإضافة لما ورد ذكره من دوافع أخزت ظهور المعجميّة الثنائية اللّغة، يمكن القول أيضاً إنّ "تقنيّات الطبع في العالم العربيّ جاءت متأخرة؛ فاستعمال المطبعة

العربية تمّ للمرة الأولى بسوريا في أوائل القرن الثامن عشر²⁴، بعيدما لاقت قبل ذلك المطبوعة في لبنان صعوبات جمّة. وفي عصر ما بعد النهضة العربية، تواصل تبرّم المعجميين من وضع القواميس الثنائية اللّغة، وتابعوا نهج السلف في ميلهم إلى المعاجم الأحادية اللّغة؛ فأولى مثلا بطرس البستاني²⁵ في **محيط المحيط** "عناية كبيرة بالمصطلحات العلميّة والفنيّة والفلسفيّة وبالألفاظ والصيغ الدخيلة والعاميّة وخاصة الشاميّة منها والكلمات والعبارات التي تتصل بالعقيدة المسيحيّة"²⁶. إنّ أمر مواكبة المستجدات التي تفرزها الحياة من مفاهيم، واختراعات، اقتضى أن يُستتبع التطور والحراك الطبيعيين، بتسمية الأشياء بمسمياتها، وبإيجاد اصطلاحات ملائمة، واضطلعت القواميس الحديثة يضبط وتحيين الرصيد اللغوي العربيّ وبإضافة ما يمكن إضافته لما لا مقابل له ممّا هو شائع في اللغات الأجنبية الأخرى. وعكف في القرن الماضي **مجمع اللغة العربية بالقاهرة** على تأليف معجم حديث، سُمّي **المعجم الوسيط**، صدر في جزأين سنة 1960، ورمى تضمين مفردات رائجة في لغة العصر، مثبتا استعمالات دلالية لم تكن مُتداولة من قبل.

3- من أبرز القواميس الثنائية اللّغة في التراث العربيّ:

كانت هناك اجتهادات هنا وهناك في التراث المعجميّ العربيّ القديم، يدور قطب رحاها حول تصنيف قواميس ثنائية اللّغة "وخاصة بين العربية واللغات المستعملة في البلاد الإسلاميّة مثل السريانيّة والقبطيّة والعبريّة والتركيّة والفارسيّة واللاتينيّة أو الرّومنيّة الإسبانيّة"²⁷.

لقد رأينا أنّ ابن منظور رمى بكلّ ثقله الجهديّ والبحثيّ لوضع مصنّف ضخم ولكأنّه أرادته جامعا مانعا، حافظا لكلام العرب ممّا يتهدده في دياره، وسلك بذلك تقاليد التمسك بالمعجميّة العربيّة الصرفة. أمّا أبو حيّان النّحوي²⁸، فقد كان من جهته متحمسا للغات الأجنبية ومولعا بإبلاعا شديدا بها؛ فوضع مصنّفا وسمه **كتاب الإدراك للسان الأتراك**²⁹، وتطرّق فيه صاحبه لمسائل وميزات لغويّة تخصّ اللسان التركيّ من

نحو، وتصريف، ونقل لمفردات تركية إلى العربية، ويقول في ديباجة مصنفه ما نصّه: "والغرض في هذا الكتاب ضبط جملة غالبية من لسان الترك لغة وتصريفا ونحوها وقد ضبطت هذا اللسان حرفا حرفا ورتبت الكلام في اللغة على حروف المعجم باللسان التركي فأذكر اللفظة التركية وأتبعها بمرادفها من اللغة العربية ثم أردفه بعلم التصريف ثم بعلم النحو"³⁰، وقد كان صاحب رؤية تنظيرية في تعلّم اللغات، إذ حدّد ثلاث مستويات لا مندوحة من الأخذ بناصيتها لتلقّن اللسان الأجنبي، وهي مستوى مدلول المفردة (علم اللغة) الذي يروم "الاهتمام بألفاظ اللغة من حيث معانيها وأصولها واشتقاقاتها، وهو ينتهي بتأليف المعاجم الغوية"³¹. يمكن أن نطلق على هذا المبحث اليوم المعجمية بصفة شاملة وعلم الدلالة بصفة خاصة. أمّا المستوى الثاني فيدور حول المفردة قبل التركيب (علم التصريف)، والمستوى الثالث يخصّ أحكام حالة التركيب (علم النحو)، وهو لا يكتفي بالجانب النظري وإنما يخضع اللسان التركي لتطبيق تنظيره، متناولا المستويات الثلاثة، مترجما وشارحا، ومقارنا، ومستشهدا فيما يعرض من تفصيل وتذليل. ونحن نلاحظ أن قواميسا محدثة كثيرة، عند العرب وفي الغرب³²، تتصدّرها زبدة القواعد النحوية "ويرى معظم اللغويين أن من الضروري تضمين خلاصة وافية لنحو اللغة الأجنبية في مقدمة المعجم"³³. إنّ عدم اقتصار مصنف أبي حيّان على تقابل المفردات بين اللغتين، يفسّره استهدافه، علاوة على المترجمين، غوث متعلّم اللغة التركية؛ ذلك أنّه زيّد على القاموس الثنائي، فصلين في تبيان مسائل التصريف والنحو في اللسان التركي. وله مصنفان آخران في اللسان الفارسي وسمه **منطق الخرس بلسان الفرس**، وفي اللسان الحبشي **نور الغبش في لسان الحبش**. وعرف التراث العربي مصنّقات أخرى، حاولت أن تقدّم عرضا معجميا بين العربية واللغات الأخرى نذكر منها:

المصادر: قاموس عربي-فارسي لأبي عبد الله حسين الزوزني (ت 1093م)

السامي في الأسامي: لأبي الفضل أحمد بن محمد الميداني (ت 1124م)

4- سياق تمخض القواميس الثنائية بين الفرنسيّة والعربيّة: لقد عرفت بدايات القرن التاسع عشر تمّاساً لا يخفى بين فرنسا والبلاد العربية لاسيما في مصر. ونظراً للبون التاسع - حضاريّاً وعلميّاً- الذي كان يفصل بين المنطقة العربية والعالم الغربي، في ظل تراجع شوكة الباب العالي، كانت دفعات الطلاب تقصد أوروبا، وبخاصة فرنسا، منذ أن أقدم علي باشا³⁴ المضي في جملة من الإصلاحات لتتدارك التأخر العلميّ، والمعرفيّ، والحضاريّ.

وكان قبل ذلك اهتمام فرنسا بالعالم الشرقي عموماً والعربي خصوصاً قد أخذ في التبلور، من خلال إقامة معهد اللغات والحضارات الشرقية سنة 1795. وغير خاف أنّه بعد حملة نابليون³⁵، ازدادت حمى الاهتمام الفرنسي بالعربية، بل وصل الأمر إلى درجة التعمّق في تدريس العربية بقسميها الفصح والمحكّي في فرنسا.

وفي لبنان، اشتدّ التنافس بين البروتستانت واليسوعيين لبيسط النفوذ؛ فأسس البروتستانت الجامعة الأمريكية ببيروت سنة 1866، أمّا اليسوعيون فأنشئوا جامعة القديس يوسف سنة 1874. ولقد عجّلت ظاهرة الاستعمار بالاعتناء الغربيّ بتدريس الجوانب اللغويّة للمجتمعات العربيّة التي وقعت تحت نير الاحتلال، "وهذا ما أدّى بالمعجميين [الغربيين] بالاهتمام بمختلف اللهجات سواء تلك التي تخصّ المغرب أو المشرق"³⁶. وفي هذا السياق إذن، بدأت تتمخض القواميس الثنائية اللغة تباعاً بين الفرنسيّة والعربيّة لاسيما لدى الجانب الفرنسيّ.

5- الاستشراق وإرهاصات صناعة القواميس الثنائية اللغة: أخذ المبحث

الاستشراقي على عاتقه تناول قضايا وشؤون ومسائل الشرق تحليلاً وتدارساً، وكان المبحث اللغوي والمعجمي من أبرز ما اجتذب انتباه المستشرقين؛ ذلك أن اللغة هي حاضنة للفكر، وناقلة له. "سعى الدرس الاستشراقي في مراحلها الجينية إلى الاستفادة المعرفية من المدونة التراثية العربية، وبخاصة العلمية منها. وبلغ أثر وتأثير الشرق على الغربيين من خلال الدور الجوهرى للترجمة من العربية إلى اللاتينية، ثم إلى مختلف اللغات الأوربية بعد ذلك [...] فاحتكاك الأوربيين بالعرب خلال الحروب الصليبية، وفي صقلية والأندلس، بثّ فيهم روح نقل المعارف التي كانوا جاهلين بها وغافلين عنها"³⁷.

وبهذا، فقد كان أئمة الاستشراق على وعيٍ بمدى أهمية إتقان العربية ليتسنى لهم نقل المعارف والعلوم. وتمّ وضع قواميس بين العربية واللاتينية، نظراً لما احتضنته العربية من علوم خطيرة، عقلية منها ونقلية، "في منتصف القرن الثالث عشر [...] ظهر قاموس كبير عربي لاتيني ولاتيني-عربي موسوم فوكابيلستا وصاحبه مجهول"³⁸.

ولمّا فشل العالم المسيحيّ فشلاً مهيناً في حروبه الصليبية أمام بأس المسلمين عكف على النقل من العربية، بغية الانتفاع من تراث العرب من جهة، ومحاربة الإسلام فكرياً من جهة أخرى. "ونلاحظ أنّ الترجمات من العربية إلى اللاتينية على وجه الإجمال، كانت تخدم حاجات عملية: كالعلوم الطبية والصيدلة، وعلوم الطبيعة، والكيمياء والفيزياء، والزراعة، والحيوان والبيطرة. أو كانت تخدم حاجات عقلية: كالفلسفة، والمنطق، والرياضيات، وغيرها"³⁹. وتواصل اضطلاع المستشرقين بشأن الشرق عامة والعرب خاصة، وكان للغرب أوقات غلبة، تزامنت مع نهضته من سبات قروسي طويل، في حين أن العالم الإسلاميّ نزع إلى الانكماش على الذات بعد سقوط الأندلس، ودخل تحت مظلة الحكم العثماني محتمياً بها سياسياً وعسكرياً؛

ودخل عهود الانكفاء والاجترار المعرفي. "ومعلوم أنّ الغرب انبرى لدراسة المجتمعات - التي احتلّها - لسانياً، اجتماعياً، دينياً وأثنوبولوجياً، حتّى لا يُعتاص عليه تسيدّها. ولم يكتف المستشرقون بمدارسة اللّغة العربيّة الفصيحة فحسب، وإنّما اشتغلوا كذلك على المحكيّات العربيّة السائدة في أرجاء القطر العربيّ؛ لذلك نلّفني تقريباً أغلبية القواميس الثنائيّة اللّغة بين العربيّة والفرنسيّة جاءت ثمرة جهد المستشرقين الفرنسيين"⁴⁰. ولاغرو أنّ أغلبية القواميس الثنائيّة اللّغة بين الفرنسية والعربية كانت من صنيع المستشرقين الفرنسيين أو مَوْضوعة لهم (كما سيرد تفصيله بالنسبة لقاموس بقطر) خلال القرن التاسع عشر وكانت مصنّفات مَوْجّهة أساساً للمسافرين إلى البلاد العربيّة، وللمترجمين وللسانين، ولجمهور المستشرقين حتّى يتسنى لهم قراءة وفهم المدوّنة العربيّة الإسلاميّة بلغتها الأصليّة أي العربيّة. ومن ثمة، كان النشاط الاستشراقيّ بحاجة ماسة لمصنّفات مرجعيّة، من شاكلة القواميس الثنائيّة اللّغة، لكي يتكئ عليها في تدارسه للتراث العربيّ الإسلاميّ، وكان لا مندوحة من تعلّم العربيّة، والتفقه فيها ليلبغ البحث الاستشراقيّ مأربه، ويحقق مبتغياته.

ما يفسّر تعطش الغرب للهيمنة وإرساء الغلبة هو أنّه كان موطن الثّورة الصناعيّة، الشيء الذي جعل عوده يقوى من الجانب العسكريّ، وصاحباً أطماعه الاقتصاديّة أغراضاً ثقافيّة، ولغويّة، وحتّى دينيّة لمقارعة الشّرق فكروياً. ويعيد غزو الفرنسيين لمصر ثمّ الجزائر، تنبّه جمهور المستشرقين إلى حقيقة الممارسة اللغويّة في الأقطار العربيّة، وتباين اللّهجات العربيّة العاميّة، "وقد دفعهم ذلك إلى الاهتمام بتعليم اللّهجات العاميّة المشرقيّة والمغربيّة في مدرسة اللغات الشّرقية الحيّة بباريس بعد عودتهم، لما في ذلك من فائدة عملية لهم في مجال الاتصال والتعامل وغير ذلك من الفوائد"⁴¹. لقد حفل القرن التاسع عشر بمراجع معجميّة ثنائيّة اللّغة بين الفرنسية والعربية من صنيع المستشرقين الفرنسيين. وهذا الاهتمام البالغ من حيث وضع القواميس وتنوّعها، يترجم شغفا بالعربية الفصحى، وحاجة لفهم محكيّات الأقطار العربيّة، ولا ننسى أنّ

أجزاء عديدة من البلاد العربية أصبحت خلال القرن التاسع عشر تسقط تحت حكم الفرنسيين، وهذا الإخضاع الاستعماري واكبته رغبة في تأليف القواميس الثنائية اللغة من لدن المستشرقين ولاسيما تلك التي تعنى باللهجات العربية المتداولة في المغرب والمشرق.

6- مصنف معجمي سابق لقاموس بقطر: في نطاق القواميس الثنائية اللغة بين العربية والفرنسية، سبق إصدار قاموس بقطر ما دونه ريفي (Ruphy)⁴² سنة 1802، إذا اتفقنا على أنّ مصنف ريفي لا يرقى حقاً وحقيقاً مقام القاموس المتكامل، بكل ما ينطوي عليه مصطلح قاموس من مدلول صرف. إنّ القاموس الفرنسي-العربي المختصر⁴³، كما وسمه صاحبه كذلك، لم تأت مادته متخمة، بل جاءت نحيفة هزيلة مقارنة بالأحجام الاعتيادية التي تميّز هذا النوع من المراجع عن غيرها. وعلى كلّ، يقرّ ريفي في ديباجة مصنفه أنّ عمله لا يعدو أن يكون "مجرد بداية"⁴⁴ انتظارا لما سيليه من قواميس أوفر مادة وأدقّ تفصيلاً. وقد وُضع مختصر ريفي لجمهور التجار الفرنسيين الذين يتعاملون مع المشرق، "ولمّا كانوا جاهلين باللغة، لم يكونوا قادرين على أن يديروا تجارتهم بأنفسهم"⁴⁵ محمّلاً سبب إفلاسهم الدائم، وصفقاتهم الخاسرة للسلوكات الانتهازية للتراجمة المحليين ولتجاوز هذا الوضع - الذي يراه ريفي غير لائق بالتجار الفرنسيين والأوربيين - رأى من الضروري ربط أواصر تقارب وصدقة مع الشرقيين حتّى تُعمّ الثقة "بتعلّم لغات الشرق"⁴⁶. ويضيف مبرزاً دور التواصل مع الشرقيّ بلغته، لكي يتبدد ما هو راسخ في ذهنه من أفكار مسبقة، ومن تحامل قائلاً: "فالكراهية تزداد، وعدم قابلية المصالحة تتولد من استحالة التفاهم"⁴⁷، فبالنسبة إليه أمر التخاطب المباشر قمين بتغيير نظرة الجانب الشرقيّ للأوربيين. ودكّر ريفي بظهور كتب لغوية حول العربية بالفرنسية، لنُدلّل للدارسين الصعاب، وتفتح للمبتدئين الأبواب، ويضرب مثلاً بالنحو الميسر الذي وضعه سيلفستر دو ساسي، وماردوشي النجار، هذا الأخير دعتته الحكومة لوضع قاموس فرنسي-عربيّ، "غير أنّه فارق

الحياة قبل أن يرى قاموسه النور⁴⁸. وأقرّ ريفي بأن قاموسه ليس مفصلاً، ولا يتعمق في دقائق مصطلحات التجارة، وذهب إلى أنّ صعوبة وضع قاموس متكامل بين الفرنسية والعربية مرّده عدم توفّر العربية على كلّ المقابلات للكثير من مفردات تنتمي إلى الواقع الاجتماعي والثقافي الفرنسيين، "وكانت غايّتي تزويد من يريدون التحدّث بالعربية الكلمات الأكثر استعمالاً"⁴⁹. جاء قاموس ريفي في ثمان وعشرين ومائتي صفحة، لم يشمل كلّ الحروف، إذ ينتهي عند حرف (T)، ولقد كان فعلاً مختصراً حدّ الإسراف؛ فحرف (S) مثلاً لا يحتوي إلا على مدخلين⁵⁰.

7- **تقديم قاموس بقطر**: لم يُخرَج قاموس بقطر⁵¹ - الذي يحمل اسمه - للعيان إلاّ بعد وفاته؛ فلسنا نعثر على تصدير من لدن صاحب القاموس⁵²، وغالبا ما يذكر المعجميون البواعث التي حملتهم على التّأليف، ومراجع المادّة اللسانية ومصادرها، ومناهج وأطوار انجاز المصنّف، وما اعترضهم من صعوبات والغايات التي كانوا يرجونها من وراء جهدهم واجتهادهم. ولا غرو أنّ ديباجة القاموس "بما تتضمنه من وسم للأداء المعجمي تكون غالبا جديرة بالتّتبّع والنظر المنهجين"⁵³، لكن مع كلّ الحذر المطلوب؛ فمهما يكن من أمر، تتشبه الديباجة القاموسية بمساحة دعائية للمصنّف، مع ما يقتضيه هذا من مبالغة غير خافية، ومن حمد مطرّد، ووحدها الدراسة المتعقّبة للبنية الصغرى كفيّلة باستقصاء ما ينفرد به القاموس من سمات، وباستجلاء ما يميّز به المعجمي من نزعات.

لقد رأى المخطوط النور بفضل قوسان دو برسفال (Gaussin De Perceval)⁵⁴، وذلك بعد وفاة المؤلّف المبكرة سنة 1821، فتولّى أمر تكملته ونشره، كما حرّر ديباجة المصنّف. وفيها يذكر دو برسفال نسبة القاموس لصاحبه الأصليّ (بقطر) والمهام التي أوكلت له في الجيش الفرنسيّ أثناء الحملة الفرنسيّة على مصر؛ فلم يكن واضع القاموس سوى ترجمان نابليون، والذي سرعان ما التحق بفرنسا بعد جلاء الفرنسيين، نظرا لتفانيه في الخدمة وولائه التّام وتبعاً "للتقارير التي أُعدتْ

للدوق فلتر وزير الحرب عن معارف السيّد إليوس في اللّغة العربيّة وشغفه بالدراسة، فقد أتاح له هذا الوزير الاستقرار في باريس لكي يضطلع بالترجمة من العربيّة إلى الفرنسيّة⁵⁵، وموزاة مع نشاط الترجمة التحريريّة، فقد ساهم في إعداد خريطة مصر الكبرى، وشرع في وضع قاموس فرنسي-عربي⁵⁶ "والتي كانت الفائدة منه مرجوة، إذ نَبّهت أقسام التّاريخ والأدب القديم لمثل هذا الاحتياج في تقرير موجه للإمبراطور بتاريخ 20 فيفري 1806⁵⁷ وقد عيّن بقطر "أستاذًا للعربيّة المحكيّة في المدرسة الملكيّة للّغات الشّرقية الحيّة"⁵⁸، ولما وافته المنية كان قد أتمّ جهده المعجمي، وترك المصنّف مخطوطا "و[الذي كرس له خمسة عشر سنة"⁵⁹ من البحث والتفاني. وقد خلف برسفال بقطر في كرسيّ العربيّة المحكيّة، وتولّى مراجعة القاموس/المخطوط، بحذف الهفوات وإضافة مواد جديدة، إذ يقول برسفال ما نصّه: "أحلت في المصنّف العديد من المواد التي استقيتها خلال إقامتي في سوريا"⁶⁰، وهكذا فزيادة على نهل بقطر من الداريجة المصرية، فإنّ تعابيرا واستعمالات لغويّة تتفرد بها بلاد الشام، أقمها برسفال في محتوى المصنّف، كما استعان كذلك بمواد من قاموس إسباني-عربي وآخر إيطالي-عربي لإثراء المتن. وتتبدّى جليًا الغاية من وضع القاموس من أثر الاعتماد على اللهجات المحكيّة في العربيّة؛ فقد "توجه المؤلف بخاصّة لأولئك الذين هم في حاجة لتعلّم العربيّة والكتابة بها"⁶¹، وجاء القاموس لتقديم العون للمتّرجمين والمسافرين، "تحقيقًا لأمنية المستشرقين"⁶² بتوفير مصنّف مرجعيّ، كما ورد في نشرية العلوم التّاريخية⁶³ التي ألمحت لبعض التفاصيل عن جهود بقطر وبرسفال وأشارت لجزئيات تتعلق بالمصنّف لما دخل مرحلة الطبع⁶⁴. لذلك تحاشى بقطر وبرسفال الكلمات المنتميّة للمستوى الأدبيّ والشعريّ، فكان هاجسهما رصد ما يرد مطردًا، وما هو شائع التداول في لغة الخطاب اليوميّ، سواء كان هذا الخطاب شفويًا أو كتابيًا؛ وفي هذا الصدد يقول برسفال: "فالألفاظ الشعبيّة كما العبارات الحسنّة السبّك في الخطاب المكتوب من لدن العرب المعاصرين وجدت طريقها في

هذا القاموس⁶⁵. نُشر قاموس إليوس بقطر الفرنسي العربي بجزأيه ما بين (1828-1829)

نشير ههنا إلى أنّ النسخة التي بين أيدينا هي نسخة مصوّرة⁶⁶ تقع في جزأين أمّا الأول فيمتدّ بين ثنايا واحد وستين وأربعمئة صفحة، أمّا الثاني فتبلغ صفحاته خمس وثلاثين وأربعمئة. وأعيد طبعه في القاهرة ونقحه عبيد جلاب⁶⁷ مزيداً بالمصطلحات العلميّة والتقنيّة سنة 1871. ونستطيع القول إن ظهور قاموس بقطر يشكل إرهاصاً في تاريخ المعجمية الثنائية اللغة بين العربية والفرنسية، وبإدارة من بواذر تفتقها، واستمراريتها في التنوّع والنتاح بعد ذلك. فلطالما اكتفت المعجمية العربية بالتفنن في صنع القواميس الأحادية اللغة، مع ما اقتضى هذا الشأن من تميّز في طرائق الترتيب، ومن ثراء في انتقاء المادّة وفي توظيف الشاهد، ومن اختلاف بائن في الكمّ والكيف؛ فاهتمت العرب بلغتها أيما اهتمام، بوضع المصنّفات في شتى العلوم اللسانيّة من نحو، وصرف، وصوتيات، لكي يستقيم النطق السليم ويتيسر التعبير الصحيح.

8- البنية الصغرى لقاموس بقطر: تحوي البنية الصغرى (la microstructure "متن المداخل والمواد"⁶⁸، وتقابلها في المعجمية البنية الكبرى (la macrostructure) التي تشمل مجموع المداخل فقط، "وإنّ طبيعة تصنيف محتوى البنية الصغرى، وكذا طبيعة المعلومات [التي تحويها] يمكنهما أن يجعلا الوسيلة المعجمية على قدر كبير أوضئيل من المنفعة"⁶⁹. لقد أعدّ القاموس الذي هو محل تقديمنا أساساً للمستعمل الفرنسي، ولأدلّ على ذلك من إيراد الشرح بلغة الانطلاق، إذ يتمّ غالبا شرح المدخل، ثم يُنقل إلى العربيّة، التي هي لغة الوصول، ومثال ذلك:

شاهد، لعيب، *Acteur*⁷⁰ s.m., qui joue un rôle,

يقدم القاموس مادة لسانية منتمية في أحيان كثيرة للمستوى المحكي من العربية، بالإضافة إلى الحرص على تقديم صيغة الجمع للمفردة الواقعة في لغة الوصول، ومثال ذلك:

Abat-jour⁷¹ s.m., sorte de fenêtre, شباك plur., شبابيك

إنّ المستعمل العربي لا يحتاج لمعرفة الجموع، وهذا الضرب من المعلومات المعجمية موجه خصيصاً للقارئ الفرنسي؛ فالمُصنّف موضوع في البلاد الفرنسية وسعى لتلبية احتياجات المتلقي الفرنسي قبل غيره. ونحن نعلم أنّ الجماعة اللسانية تجتهد في أن يكون اتجاه الترجمة من اللغات الأخرى إليها. وهذا ما يفسر اقتصار القاموس على الجزء الفرنسي-العربي. إنّ المقابلات المعجمية والسياقية التي زجّ بها القاموس تنتمي إلى مستويي اللغة: الفصح منها والمحكي؛ ونلفي وروداً مكثفاً للمفردات والتعابير ذات الاستعمال اللهجاتي، حتّى أنّه يطغى بين ثنايا البنية الصغرى. واللّهجة "هي المحكي الخاص بمنطقة ما [...] وتعني عموماً ما هو سائد من استعمال لغوي في جزء محدود من التراب الوطني"⁷². ومعلوم أنّ الرقعة الجغرافية العربية تتميز باستعمال لهجات محلية، تخصّ كل قطر، وتميّزه عما سواه؛ فكان إذاك توظيف المستوى المحكي في القاموس لتذليل الطريق للفرنسي المُقبل على تعلّم العربية، حتّى يحصل له تمكّن من التواصل بالعربية مشافهة. وما يُرجى من تعلّم اللغة العربية هو مخاطبة العرب بلغتهم المتداولة، وفهم كلامهم وإدراك كنهه، وقد انتمت غالبية مواد المستوى المحكي للهجة المصرية؛ ذلك أنّ واضع القاموس كان مصرياً، ثم إنّ اهتمام الفرنسيين كان منصباً بدرجة خاصّة على مصر نظراً لموقعها الإستراتيجي، ولوزنها التاريخي والحضاري، أضف إلى إنّ التنافس كان على أشده بين الفرنسيين والإنجليز في كسب مواقع جديدة في الشرق تبعاً لوهن التأثير العثماني وأقول نجمه تدريجياً. ونقرأ في ديباجة القاموس تذكيراً بأصناف الجمهور التي أزمع

القاموسي خدمتها، ودرء الغبن عنها، ومدّ العون لها، من مسافرين، وطلاب ولسانيين.

يحسن في هذا المقام التتويه بشحّ قواميس التّرجمة في أوائل القرن التاسع عشر بل وندرته، إذ لم تولّع شرارة حركة التّرجمة بعد، وتأجلّ بزوغها إلى حين فوضع القواميس المزدوجة اللسان لم يكن تقليداً درج عليه العرب من قبل، ولا ممارسة اعتادوا تحقيقها وانجازها، فهي في هذا سمت أقرب إلى الصناعة الدخيلة على عرفهم في التأليف والتصنيف. لا غرو، إذن، من إنّ بدايات المعجمية الثنائية اللّغة كانت شأنًا فرنسيًا محضًا، ولهذا الكلام ما يبرّره طيلة كامل القرن التاسع عشر؛ فلقد توالّت إصدارات القواميس المزدوجة نوات الاتجاهين بين العربية والفرنسية، وتنوّعت أحجامها، ومضامينها، وغاياتها.

تغلب على التنظيم الداخلي للمواد نزعة شرح المداخل في لغة الانطلاق، ليأتي بعد ذلك رصّ المقابلات في لغة الوصول. إنّ تقديم مثل هذا الضرب من المعالجة المعجمية يوحي بأنّ المعجميّ انكأ على معجم فرنسي-فرنسي⁷³، يكون قد استقى منه المداخل وما اتصل بها من تعريفات وصفية، أو شواهد سياقية. ويجدر التذكير ههنا أنّ القواميس الثنائية اللغة تنهل أغلب مضامينها الأساسيّة من المعاجم الأحاديّة اللغة، وهي عادة قديمة مازالت قائمة وجارية إلى الآن، درج عليها المعجميون ربحاً للوقت وادخاراً للجهد، غير أنّ غايات القواميس على تنوعاتها تختلف تمامًا مثل وظائفها التي تتباين وجنس القاموس وطبيعة الجمهور المُعدّ له؛ فإذا كانت غاية القاموس الأحادي اللغة شرحيّة، وتفسيريّة، بل وحتى موسوعية، فإنّ نظيره المزدوج اللغة يجيء مليبًا لاحتياجات المستعمل في إيجاد المقابلات اللفظيّة والمعادل السياقيّ، وهو في ذلك يمدّه بمعلومات ترجميّة.

ما يُلاحظ في التنظيم الداخلي أيضا عدم احتكامه لطريقة عرض معيّنة، إذ لم تُهيأ المادة اللسانية وفقا لمنهجية واضحة المعالم، تسير البنية الجزئية في منوالها

بصورة مطّردة؛ ذلك أنّ من أصول الإنتاج المعجمي تصفيف عناصر المادّة المختارة تبعاً لانتظام داخلي، كأنّ يأتي خاضعاً لتدرج المعاني بحسب الترتيب التعاقبي لمدلولات المدخل، من الأقدم استعمالاً إلى الأحدث، أو على أنّ تُرتب المعاني من الحسّي إلى المجرّد، أو من الحقيقي وصولاً إلى المجازي، وبهذا لا يولي بقطر اهتماماً كبيراً لمثل هذا النوع من التصنيفات الداخليّة للمادّة اللسانية، بل نلّفني مستوى عمق محتوى المدخل غير مصفوف؛ فالتشذير بالأرقام والحروف لم يرد بطريقة ممنهجة. وعلى كلّ، لم يمثّل تصفيف محتوى المواد شغلاً شاغلاً لبقطر، بقدر ما كان همّه الأوحد وضع القاموس وإتمامه؛ "فالمعلومات المعجمية موضوعة مثلما اتفق في البنية الصغرى، وهذا ما لا يذلل مهمة المترجم في بحثه عن مكافئ مناسب"⁷⁴.

أمّا من ناحية طبيعة الشواهد المستعملة، فلا يلجأ القاموسيّ إلى إيراد شواهد مستقاة من مصادر ومراجع أدبية أو تاريخية، الخ، وعلى كلّ فلا نجد ذكراً لمصادر الشواهد المقدمة، ولطبيعتها؛ أي نوعها الإنتمائي، لذلك "فمحتوى المداخل القاموسية يتميّر بشيء من التراكم السياقي"⁷⁵.

نشير إلى بعض النقائص التي تخللت البنية الصغرى، منها ورود بعض الرموز استعمالاً من لدن القاموسيّ دون أن يثبت لها ما تحيل إليه. ومعلوم أنّ لائحة المختصرات والرموز تستبق في الصناعة المعجمية المواد وممتنها. كما نلاحظ أنّ حجم المساحات المخصصة للمواد جاء مختزلاً إلى حدّ الإسراف، ولم تزخر تضاعيف البنية الصغرى بمعلومات متنوّعة ومكثّفة، وأحياناً لا تف الشواهد بتغطية شتى استعمالاً الوحدة المعجمية في الخطاب. لذا انحصرت المعالجة المعجمية في شرح مقتضب بلغة الانطلاق، وإيراد سياق يتضمن كلمة المدخل في استعمال لغويّ ما.

لم تحفل البنية الصغرى للقاموس بملحقات، وصور، أو بيانات توضيحية، أو خرائط، إذ مادته لغوية محضة؛ أي إنّها تقتصر على المواد اللسانية المتصلة بلغتي الانطلاق والوصول. أمّا فيما يتعلق باللهجات المستعملة، فنجد حشداً ملفتاً للمحكية

المصريّة، كما نلّفِي موادا لسانيّة متعلّقة باللّهجة الشاميّة، ومردّها جملة المواد التي أضافها برسفال تكملة وزيادة لمتن المخطوط الأصلي، ويدلّل عليها القاموسيّ بأنّها من الخطاب المستعمل في سوريا، ونورد ههنا بعضا من المواد المنتميّة للمستوى اللهجاتي:

Mener⁷⁶

دبر الشختورة, Mener une barque

Aviser⁷⁷

ايشُ الجاك إلى أن؟ De quoi t'avises-tu de ?

Là⁷⁸

من هُونُ إلى هُونِيك, d'ici là, هونيك (Syrie)

وصفوة القول، يُحسب لبقطر شقّه لطريق المعجمية الفرنسية-العربية الاتجاه في سياق تاريخي لم يحفل كثيرا بما شاكل هذا الصنف من القواميس، بل وشهد عقمًا في صناعتها، ووضعها. فلقد اجتهد في إيجاد المقابلات بالعربية للعديد من الكلمات التي يصعب نقلها، خاصة وأنّ الواقع الفرنسي لم يكن متقاربا والواقع العربي آنذاك؛ فكان لا بدّ من إيجاد مقابلات عربية لمفردات تخصّ الحقيقة الاجتماعية والثقافية والحضارية الفرنسية، ونعلم أنّ خوضا في هذا المجال ليس بالأمر الهين البتّة، وهذه طائفة من الأمثلة، التي تبين كيفية نقل بعض المداخل ولنا أن نقارن بينها وبين ما استنتب من مقابلات لها في الوقت الحاضر.

Volcan⁷⁹

جبل نار

علم حوادث الجو **Météorologie**⁸⁰**Nageoire**⁸¹

شوكة يعوم بها السمك، جناح السمكة

Volontaire⁸²

مخيّر

على الرّغم من أنّ الكلمات الواردة آنفا تبدو يسيرة نسبيا إلا أنّ مقابلاتها لم تكن قد أخذت شكلها النهائي في عهد بقطر، وهذا ما يتّيم عن صعوبة لاقاها صاحب القاموس في إيجاد وتخير المقابلات العربية، والتي تبدو لنا اليوم بالغة الوضوح بل وسهلة، ونعبر عنها تباعا بما يلي: (بركان، علم الأرصاد الجوية⁸³، زعنفه متطوع).

الخاتمة: بيّنت الدراسة مدى تجذّر المعجمية الأحادية اللغة في التراث العربي والتي صاحبت منذ وقت باكر فترة التّفعيد للعربية، وأوضحنا مدى شغف العرب وعنايتهم بلغتهم، بما جمعه من مادة لسانية، وبما وضعوا لها من قواميس، في حين أنّ المعجمية الثنائية اللغة لم تعرف إقبالا وحماسا من قبلهم، ماعدا استثناءات هنا وهناك. وأشرنا إلى أنّ عدم التفات العرب للغات الأخرى كان من أهم الأسباب التي أدت إلى عزوفهم عن صناعة القواميس الثنائية اللغة. هذا على الرّغم من تعاطيهم للتّرجمة، بنقل المعارف والعلوم، إلا أنّ التّرجمات كانت تتّم غالبا بفضل مترجمين متمكّنين من لغة أو عدّة لغات إضافة إلى العربية، وهذا من دون العودة إلى مصادر مرجعية من شاكلة القواميس المزدوجة اللغة.

لقد عكف المستشرقون قديما على تعلّم العربية، والتّفقه فيها؛ فالتفتوا لوضع قاموس بين العربية واللاتينية، حتّى يسهل لأقرانهم النّقل من علوم ومعارف العرب. وفي القرن التاسع عشر، تجدد الاهتمام بالعربية من قبل الفرنسيين، تبعاً لهيمنتهم على أقطار عربية، وهذا ما يفسّر التفاتهم الخاصّ للمحكيات العربية بمختلف تنوعاتها، وتفرعاتها، وإنتاجهم لقواميس تعالج المحكيات العربية في صورة قواميس ثنائية اللغة بين العربية والفرنسية. وكان قاموس ريفي المختصر إرھاصا من إرھاصات المعجمية الثنائية اللغة، ليأتي بعده قاموس بقطر، الذي شكّل ظهوره منعرجا حاسما، وأعطى منطلقا حقيقيا، ودفعنا تّرا للوضع القاموسي في البلاد الفرنسية وفي الأقاليم الواقعة تحت حكمها، وهذا الجهد المعجمي تواصل إلى ما يزيد القرن من الزمن من الجانب الفرنسي.

لقد ساهم قاموس بقطر إذن في توطيد شأن وضع القواميس بين العربية والفرنسية؛ فشكّل مصنّفه مدوّنة مرجعية في تاريخ التأليف القاموسي فيما يتّصل بالمعجمية الفرنسية - العربية. وعلى الرّغم من النقائص التي وردت في البنية الصغرى للقاموس، إلاّ أنّه شقّ طريق الوضع القاموسي بين العربية والفرنسية ولقد نحى منحاه طائفة من القاموسيين الفرنسيين طيلة القرن التاسع عشر. وغير خاف ما لنتاج بقطر من خطورة؛ ذلك أنّه تصدّى لملء الفراغات غير الموجودة في المعجم العربيّ، بإيجاد مقابلات لكلمات تخصّ الشأن الفرنسيّ وواقعه، مفردات فرنسية كثيرة لم تتوفر على نظيراتها آنذاك في اللسان العربيّ. وهذا ما جعل من المعجميّ المزدوج اللغة مُترجمًا أيضًا، وناقلًا لكلمات وسياقات من نظام لسانيّ لنظام لسانيّ آخر.

الهوامش:

- 1 - عبد الكريم خليفة، اللغة العربية والتعريب في العصر الحديث، منشورات مجمع اللغة العربي الأردني ط2، عمان، 1988م، ص 26.
- 2 - علي الفاسمي، علم اللغة وصناعة المعجم، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، 1992م، ص 4.
- 3 - Mohammed Besnaci, *La contextualisation dans la lexicographie bilingue : le cas du dictionnaire français-arabe*, Dar Oum-El-Kitab, Mostaganem, 2014, p. 45.
- 4 - أحمد مختار عمر وآخرون، معجم اللغة العربية المعاصرة، المجلد الأول، ط1، عالم الكتب، القاهرة 2008م، ص 1857.
- 5 - أنطوان نعمة وآخرون، المنجد في اللغة العربية المعاصرة، دار المشرق، ط1، بيروت، 2000م، ص 950.
- 6 - Alain POLGUERE : *Lexicologie et sémantique lexicale : notions fondamentales*, les Presses de l'Université de Montréal, collection : « Paramètres », Montréal, 2003, p. 193.
- 7 - Jean DUBOIS et Claude DUBOIS : *Introduction à la lexicographie : le dictionnaire Larousse*, collection : « Langue et langage », Paris, 1971, p. 7.
- 8 - عنان الخطيب، المعجم العربيّ بين الماضي والحاضر، مكتبة لبنان ناشرون، ط2، بيروت، 1994م، ص 35.

- 9 - رياض عثمان، العربية بين السليقة والتعقيد - دراسة لسانية -، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت 2012م، ص 127.
- 10 - أحمد إقبال الشرفاوي، معجم المعاجم : تعريف بنحو ألف ونصف ألف من المعاجم العربية التراثية دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، 1983م، ص 66.
- 11 - Claude BOISSON, Pablo KIRTCHUK, Henri BEJOINT: « Aux origines de la lexicographie : les premiers dictionnaires monolingues et bilingues », in : *International Journal of Lexicography*, Volume 4, Number 4, Winter 1, Oxford University Press, Oxford 1991, p. 276.
- 12 - François Gaudin, *La lexicographie militante : dictionnaires du XVIII au XX siècle* François Gaudin (dir), Editions Champion, Paris, 2013, p. 7.
- 13 - ابن هارون الرشيد ولد في بغداد 786م وتوفي فيها عام 833 م.
- 14 - Hassan HAMZÉ et als: *Le sens propre et le sens figuré dans le dictionnaire bilingue français-arabe*, Dār al-Munā, Liban, 2007, p. 6.
- 15 - Voir Joëlle REDOUANE : *Encyclopédie de la traduction*, Office des publications universitaires, collection : « Le cours d'interprétariat », Alger, 1996, p. 7.
- 16 - Mohammed Besnaci, *Op.cit.*, p. 48.
- 17 - Joëlle REDOUANE, *Op.cit.*, p. 7.
- 18 - هو أبو نصر إسماعيل بن حمّاد الجوهري الفارابي ت 393 هـ.
- 19 - أحمد إقبال الشرفاوي، المرجع نفسه، ص 219.
- 20 - هو أبو الفضل جمال الدين بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري ت 711 هـ.
- 21 - ابن منظور، لسان العرب، المجلد الأول، دار صادر للطباعة والنشر/ دار بيروت للطباعة والنشر بيروت 1968م، ص 8.
- 22 - محمد رشاد الحمزاوي، من قضايا المعجم العربي قديما وحديثا، دار الغرب الإسلامي، تونس 1986م، ص 53.
- 23 - تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، ط 3، القاهرة، 1998م، ص 11.
- 24 - Mohammed Besnaci, *Op.cit.*, p. 63.
- 25 - ولد في لبنان سنة 1819م وتوفي سنة 1883م.

- 26 - أحمد معتوق، المعاجم اللغوية العربية: المعاجم العامة وظائفها-مستوياتها- أثرها في تنمية لغة الناشئة- دراسة وصفية تحليلية نقدية، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 1999م، ص 63.
- 27 - Hassan HAMZÉ et als, *Op.cit.*, p. 7.
- 28 - هو محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان، أثير الدين، أبو حيان، الغرناطي النحوي ولد في غرناطة سنة 654 هـ توفي سنة 745 هـ.
- 29 - انتهى من تدوينه سنة 712 هـ.
- 30 - أبو حيان النحوي، كتاب الإدراك للسان الأتراك، مطبعة عامره، 1309م، ص 9/8.
- 31 - حكمة كشلبي فواز، كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي: دراسة وتحليل ونقد، دار الكتب العلمية ط1، بيروت، 1996م، ص 31.
- 32 - *Le Petit Larousse et Le Petit Robert donnent, à titre illustratif, au lecteur un aperçu de la grammaire française dans leurs premières pages.*
- 33 - علي القاسمي، المرجع نفسه، ص 74.
- 34 - محمد علي باشا حكم مصر بين 1805 و 1848.
- 35 - دام التواجد الفرنسي في مصر من 1798 إلى 1801.
- 36 - Mohammed Besnaci, *Op.cit.*, p. 64.
- 37 - محمد بسناسي، قراءة في دراسة ميشال أورسال الاستشراقية، تحت الطبع.
- 38 - Henriette WALTER et Bassam BARAKÉ : *Arabesques : l'aventure de la langue arabe en Occident*, Robert Laffont, éditions du temps, collection : « Le goût des mots », Paris, 2007, p. 73.
- 39 - محمود المقداد، تاريخ الدراسات العربية في فرنسا، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1992م، ص 18.
- 40 - محمد بسناسي، المرجع نفسه.
- 41 - محمود المقداد، المرجع نفسه ، ص 34.
- 42 - Jean François Ruphy est un orientaliste et lexicographe français.
- 43 - J. F. RUPHY, *Dictionnaire abrégé François-Arabe*, A l'usage de ceux qui se destinent au Commerce du Levant, L'imprimerie de la République, Paris, 1802.
- 44 - *Idem*. Voir la préface.
- 45 - *Ibid*.
- 46 - *Ibid*.

47 - *Ibid.*

48 - *Ibid.*

49 - *Ibid.*

50 - *Idem.*, p. 227.

51 - Il est né en Egypte en 1784. Pour une biographie détaillée voir Charles Louandrs et Félix Bourquelot, *La littérature française contemporaine*, Tome 2, Félix Daquin Editeur, Paris 1846, pp. 39/40.

52 - حاول نذير شريفي التعريف بالقواميس الثنائية اللغة وتكلم باقتضاب عن قاموس بقطر لكن المعلومات التي أوردها في دراسته كانت غير دقيقة بالمرّة، وأغلب الظن أنه لم يتصفح القاموس واكتفى بالاستعانة بنشرية إخبارية تتحدث عن القاموس قبل صدوره، وسنقتصر تعقبنا عليه بالحديث عن طائفة من الأخطاء وردت في مقاله المنشور في مجلّة ترجمان سنة 2010. تحت عنوان فرعي عنوانه (قاموس إ. بقطر ط2 1828)، وفي هذا العنوان خطأين: أما الأول ففي هذه السنة لم تكن قد صدرت سوى الطبعة الأولى، ثم إن القاموس طبع الجزء الأول منه في 1828 والجزء الثاني في 1829. ينسب نذير شريفي تصدير القاموس لبقطر ص 63، في حين أنه كان من وضع برسفال. يؤكد شريفي على أن بقطر وضع فهرسا ليتمكن القارئ العربي من استخدامه للبحث عن المقابلات الفرنسية ص66 وهذا خطأ، لأنه ببساطة لا يوجد أيّ فهرس في نهاية القاموس؛ فتزويد القاموس بفهرس كانت مجرد فكرة راودت برسفال، لكنّه تراجع عن تجسيدها لأنه وجد عسرا من ناحية تطبيقها.

53 - Franz Josef Hausmann (ed), *Dictionnaires. Encyclopédie internationale de lexicographie*, Walter de Gruyter, Berlin/New York, 1989, p. 216.

54 - Il est né en 1795 à Paris et mort en 1871.

55 - *Dictionnaire de Bocthor*, voir la préface.

56 - Ce n'est pas un dictionnaire arabe-français comme cela a été écrit dans *Biographie Universelle, ancienne et moderne : supplément, ensemble d'auteurs*, Imprimerie de Paul Dupont et Comp, Tome 58, Paris, 1835, p. 409.

57 - *Dictionnaire de Bocthor*, voir la préface.

58 - *Ibid.*

59 - Champollion FIGEAC et als, *Bulletin des sciences historiques, antiquités, philologie* Volume 8, Imprimerie de Fain, Paris, 1827, p. 136.

60 - *Dictionnaire de Bocthor*, voir la préface.

61 - *Ibid.*

62 - Champollion FIGEAC et als, *Op.cit.*, p. 136.

63 - *Ibid.*

64 - *Idem.*, p. 137.

65 - *Dictionnaire de Bocthor*, voir la préface.

66 - Bibliothèque Chevreul (Lyon), code de l'ouvrage : 492.73 BOC.

- 67 - *Dictionnaire français-arabe*, Ellious Bocthor, revu et corrigé par Ibed Gallab, Imprimerie égyptienne de Boulac, Egypte, 1871.
- 68 - Nicole Tournier et Jean Tournier, *Dictionnaire de lexicologie française*, Ellipses editions Paris, 2009, p. 224.
- 69 - Mohammed Besnaci, *Op.cit.*, p. 107.
- 70 - *Dictionnaire de Bocthor*, volume 1, p. 13.
- 71 - *Idem.*, p. 2.
- 72 - Nicole Tournier et Jean Tournier, *Op.cit.*, pp. 105/106.
- 73 - On confirme l'utilisation du dictionnaire de l'académie comme corpus de base départ Champollion FIGEAC et als, *Op.cit.*, p. 137.
- 74 - Mohammed Besnaci, *Op.cit.*, p. 109.
- 75 - *Idem.*, p. 115.
- 76 - *Dictionnaire de Bocthor*, volume 2, p. 51.
- 77 - *Dictionnaire de Bocthor*, volume 1, p. 76.
- 78 - *Dictionnaire de Bocthor*, volume 2, p. 1.
- 79 - *Idem.*, p. 430.
- 80 - *Idem.*, p. 56.
- 81 - *Idem.*, p. 81.
- 82 - *Idem.*, p. 430.

83 - يورد المنهل ثلاثة مقابلات للمفردة وهي: علم الأرصاد، وجويات، وأرصاد جوية، أنظر ص 779.

قائمة المصادر والمراجع

I.المصادر

BOCTHOR Ellious, *Dictionnaire français-arabe*, revu et corrigé par GAUSSIN De Perceval, éditions Firmin Didot, 2 vol, 461, 435 p, Paris, 1828-1829.

II.المراجع

بالعربية :

- 1- بسناسي محمد، قراءة في دراسة ميشال أورسال الاستشراقية، تحت الطبع.
- 2- حسان تمام، اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، ط 3، القاهرة، 1998م.
- 3- حمزوي (ال) محمد رشاد، من قضايا المعجم العربي قديما وحديثا، دار الغرب الإسلامي، تونس 1986م.

- 4- خطيب (ال) عدنان، ص35، المعجم العربي بين الماضي والحاضر، مكتبة لبنان ناشرون، ط2 بيروت، 1994م.
- 5- خليفة عبد الكريم، اللغة العربية والتعريب في العصر الحديث، منشورات مجمع اللغة العربي الأردني، ط2، عمان، 1988م.
- 6- شراوي (ال) أحمد إقبال، معجم المعاجم : تعريف بنحو ألف ونصف ألف من المعاجم العربية التراثية، دار الغرب الإسلامي ، ط2، بيروت، 1983م.
- 7- عثمان رياض، العربية بين السليقة والتعقيد- دراسة لسانية -، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت 2012م.
- 8- قاسمي (ال) علي، علم اللغة وصناعة المعجم، جامعة الملك سعود، العربية السعودية، 1991م.
- 9- كشلي حكمة فواز، كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي: دراسة وتحليل ونقد، دار الكتب العلمية ط1، بيروت، 1996م.
- 10- معتوق أحمد، المعاجم اللغوية العربية: المعاجم العامة ووظائفها -مستوياتها- أثرها في تنمية لغة الناشئة- دراسة وصفية تحليلية نقدية، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 1999م.
- 11- مقدار (ال) محمود، تاريخ الدراسات العربية في فرنسا، سلسلة عالم المعرفة، المجلس للثقافي والفنون والآداب، الكويت، 1992م.

II. المعاجم والقواميس

- 12- حيان (أبو) النحوي، كتاب الإدراك للسان الأتراك، مطبعة عامره، 1309م.
- 13- مختار عمر أحمد وآخرون، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، المجلد الأول، ط1، القاهرة 2008م.
- 14- منظور (ابن) الإفريقي، لسان العرب، دار صادر للطباعة والنشر/ دار بيروت للطباعة والنشر المجلد الأول، بيروت 1968م.
- 15- نعمة أنطوان وآخرون، المنجد في اللغة العربية المعاصرة، دار المشرق، ط1، بيروت، 2000م.

بالفرنسية:

I- BESNACI Mohammed, *La contextualisation dans la lexicographie bilingue : le cas du dictionnaire français-arabe*, Editions Oum-El-Kitab, Mostaganem, 2014.

- 2- BOISSON Claude, KIRTCHUK Pablo, BEJOINT Henri : «Aux origines de la lexicographie : les premiers dictionnaires monolingues et bilingues », in : *International Journal of Lexicography*, Volume 4, Number 4, Winter 1, Oxford University Press, pp. 261-315. Oxford, 1991.
- 3- CHERIFI Nadir : «Les dictionnaires bilingues français-arabe, histoire et méthodes», in Revue *Turjuman*, revue de Traduction et d'Interprétation, Université Abdelmalek Essaâdi Ecole Supérieure Roi Fahd de traduction, Volume 19, N°1, pp. 34-80, Tanger, avril 2010.
- 4- DUBOIS Jean et DUBOIS Claude (1971) : *Introduction à la lexicographie : le dictionnaire*, Larousse, collection : « Langue et langage », Paris, 1871.
- 5- Gaudin François, *La lexicographie militante : dictionnaires du XVIII ai XX siècle* François Gaudin (dir), Editions Champion, Paris, 2013.
- 6- HAMZÉ Hassan et als : *Le sens propre et le sens figuré dans le dictionnaire bilingue français-arabe*, Liban, Dār al-Munā, Liban, 2007.
- 7- LOUANDRS Charles et BOURQUELOT Félix, *La littérature française contemporaine* pp 39/40, Tome 2, Félix Daquin Editeur, Paris, 1846.
- 8- POLGUERE Alain, *Lexicologie et sémantique lexicale: notions fondamentales*, les Presses de l'Université de Montréal, collection : «Paramètres», Montréal, 2003.
- 9- REDOUANE Joëlle: *Encyclopédie de la traduction*, Office des publications universitaires, collection: « Le cours d'interprétariat », Alger, 1996.
- 10- WALTER Henriette et BARAKÉ Bassam: *Arabesques : l'aventure de la langue arabe en Occident*, Robert Laffont, éditions du temps, collection : « Le goût des mots », Paris, 2007.
- Dictionnaires**
- 11- Biographie Universelle, ancienne et moderne : supplément, ensemble d'auteurs Imprimerie de Paul Dupont et Comp, Tome 58, Paris, 1835.
- 12- BOCTHOR Ellious, *Dictionnaire français-arabe*, revu et corrigé par Ibed Gallab Imprimerie égyptienne de Boulac, Egypte, 1871.
- 13- FIGEAC Champollion et als, *Bulletin des sciences historiques, antiquités, philologie* Volume 8, Imprimerie de Fain, Paris, 1827.
- 14- HAUSMANN Franz Josef (ed), *Dictionnaires encyclopédie internationale de lexicographie*, Walter de Gruyter, Berlin/New York, 1989.
- 15- IDRIS Souheil, *Al-Manhal : Dictionnaire français-arabe*, Dār al-'Adab, Beyrouth 2004.
- 16- *Le Petit Larousse Illustré*, Larousse, 100 eme (édition 2005), Paris, 2004.
- 17- REY Alain, *Le Petit Robert*, Robert, Paris, 2014.
- 18- RUPHY J. F, *Dictionnaire abrégé François-Arabe*, A l'usage de ceux qui se destinent au Commerce du Levant, L'imprimerie de la République. Paris, 1802.

19- TOURNIER Nicole et TOURNIER Jean, *Dictionnaire de lexicologie française*, Ellipses éditions, Paris, 2009.